الفصل الثالث والعشرون
الاتجاهات الجديدة في التحليل النفسي

لم تسر الأمور داخل حركة التحليل النفسي مثلما كان يتمنى ويخطط فرويد. فقد تتبعنا فيما سبق تلك الجهود المكثفة التي بذلها من أجل أن تبلغ تلك الحركة التي أسسها وحدد مسارها وغاياتها مدى عالمياً واسعاً ومنتظماً. غير أن الانشقاقات التي عرفتها في وقت مبكر خيبت آماله، وتركت في نفسه أثراً سلبياً عميقاً لم يستطع إخفاءه أو كتمانه رغم محاولاته إظهار موقفه القوي، والهجومات العنيفة التي كان يشنها ضد «المنشقين».

علم نفس الأنا

وأياً كانت الآثار التي خلفها خروج أدلر ويونغ عن الخط العام الذي رسمه فرويد ومخالفتهما لآرائه، فقد حافظ مؤسس التحليل النفسي على ذلك الخط واستمر في توضيح آرائه وإعادة النظر فيها وتصويبها في ضوء المستجدات الفكرية والعلمية والاجتماعية والملاحظات العيادية وقد مست هذه العملية العديد من المفاهيم التي تميزت بها نظريته. ومن بينها مفهوم الأنا وعلاقته بالهو والأنا الأعلى. حيث خصص له جزءاً هاماً من رسائله: «سيكولوجية الجماعة وتحليل الأنا»(١٩٢١). و«الأنا والهو»(١٩٢٣) و«الكف والعرض والحصر» (١٩٢٥)، ومقالاته: «الإنكلو»(١٩٢٥) و«انشطار الأنا أثناء عمليات الدفاع» و«التحليل النفسي مكتملاً وغير مكتمل»(١٩٣٧). والحق أن رجوعه المتكرر إلى «الأنا» وحديثه عن موقعها في الجهاز النفسي ودورها ووظائفها هو رد فعل على الانتقادات التي وجهت إليه بسبب تضخيمه للهو وتعظيمه لدوره على حساب الأنا. ففي أعماله المذكورة يقدم رؤية جديدة إلى مكونات النفس وأنظمتها، وعلاقة كل نظام بالنظامين الآخرين. وقد سعى من وراء ذلك إلى إزالة اللبس وتصحيح التصور الشائع عن التحليل النفسي ومهمته واهتمامه أساساً

باللاوعي، وتبيان أن الأنا هي أحد المحاور التي يعنى بدراستها. بيد أن التنقيحات والتعديلات التي أدخلها على نظريته، لاسيما جانب آليات الدفاع منها، لم تغير من جوهر موقفه من مقومات الشخصية. وبقي الأنا، عنده، ذلك الجزء البسيط من النفس، الملحق بالهو. وهذا ما أثار لدى بعض المتحمسين للتحليل النفسي الرغبة في إلقاء المزيد من الضوء على الأنا وبنيتها ووظائفها. ولقد شكلت دراسات هؤلاء تياراً في التحليل النفسي عرف بـ«علم نفس الأنا». وكان من أشهر ممثليه آنا فرويد A. FREUD(١٨٩٥- ؟) وهايتر هارتمان H. HARTMANN.(١٨٩٤-١٩٧٩) وإريك إريكسون E. ERIKSON (١٩٠٢- ؟) ودافيد رابابوت D. RAPAPORT(١٩١١-١٩٦١م) وميلاني كلين M. KLEIN وإرنست كريس E. KRIS وكينيث كينيستون K. KENNISTON.

وتتمثل مهمة علم نفس الأنا-كما حددتها آنا فرويد- في الحصول»... على أكمل معرفة ممكنة بكل المنظمات الثلاث التي نعتقد أن الشخصية النفسية تتألف منها، وأن نتبين ما عليه علاقاتها مع بعضها البعض ومع العالم الخارجي. ومعنى ذلك: فيما يتصل بالأنا، أن نتقصى مضمونها وحدودها ووظائفها، وأن نتبين تلك التأثيرات من جانب العالم الخارجي والهو والأنا العليا...»(فرويد آ، بلا تاريخ، ٨).

ويبدو واضحاً من خلال هذه الكلمات أن آ. فرويد ومن حذا حذوها لم يرفضوا المسلمة الأساسية التي وضعها فرويد، وهي أن الشخصية تتألف من الهو والأنا والأنا الأعلى. وما يتعين عمله هو ربط تلك الأبعاد أو الأنظمة بعضها ببعض، والوقوف على ما بينها من صلات على أساس وحدة الشخصية الإنسانية.

وهكذا ودونما تفريط أو تشكيك بالدور الهام الذي يلعبه اللاوعي في تكون الشخصية وتطورها، وجه أنصار «علم نفس الأنا» أنظارهم نحو دراسة الجوانب التي أغفلها فرويد والمتعلقة بنظام الأنا. لقد تحدث فرويد عن الأنا والوظائف التي تؤديها على صعيد السلوك الفردي. ولكنه، في رأيهم، لم يقدم وصفاً عن بنيتها الداخلية باستثناء ما ذكره عن آليات الدفاع.

ولقد توصل علماء نفس الأنا إلى أن الأنا تشتمل على ثلاثة أجهزة: الجهاز الحسي، والجهاز الحركي، والجهاز الذاكروي. وكل واحد منها يؤدي وظيفة محددة. فالجهاز الحسي يتولى عمليات التوجه في المحيط، والجهاز الحركي يمكن الشخصية من القيام بالأفعال مع أشياء وموضوعات العالم الخارجي. بينما ينظم الجهاز الذاكروي الأحداث والوقائع الماضية ويكون المفاهيم.

ويعتبر ممثلو هذا التيار أن العضوية تملك منذ البداية القدرة على الحس والحركة والتذكر، زيادة على الرغبة التي قصر فرويد حياة العضوية على وجودها. ولم تمنع نظريتهم إلى الأنا في ارتباطها الوثيق بكل من الأنا الأعلى والهو، من استخلاص أن عمل أجهزتها يتم بصورة ذاتية وبمعزل عن الرغبة.

ومن نافلة القول أن غاية ممثلي هذا الاتجاه لم تكن معارضة علم نفس الهو الفرويدي بعلم نفس الأنا، وإنما تقديم إضافات له وإيضاح الغامض من جوانبه التي كانت مثار احتجاجات وتساؤلات شتى. وتلك حقيقة ينبغي ألا تختفي وراء مصطلح «علم نفس الأنا». فهو وإن كان استعماله يعكس-ولا ريب- اهتماماً خاصاً بمحتوى الأنا ودورها في نشاط الشخصية، إلا أنه لا يعبر عن الإطار الذي وضع اتباعه أنفسهم فيه.

إن تركيزهم على الأنا لم يتم إلا في ضوء المبادئ والمسلمات التي وضعها فرويد، كالهو والغريزة الجنسية وأطوارها وأشكالها والعقد النفسية واللاوعي. وفي تحليلهم لبنيتها سلكوا نفس الطرائق التي أنشأها، كتفسير الأحلام والتداعي الحر، وأضافوا إليها تحليل نشاط اللعب(كلين).

ولتحقيق ذات الغاية جرت محاولات أخرى اتبع فيها أصحابها طرائق مختلفة وتعرضوا لنواحي أخرى من النظرية الفرويدية بالتحليل والنقد. ومن بينها ما قامت به هورني وفروم وسوليفان ورايش. وعلى الرغم من أن كلاً منهم تناول التحليل النفسي من زاويته، فإن بالإمكان تصنيف أعمال هورني وفروم وسوليفان تحت عنوان واحد هو الاتجاه السيكو- ثقافي، وأعمال رايش تحت اسم الاتجاه السيكو- اجتماعي في التحليل النفسي.

الاتجاه السيكو- ثقافي

تزامن بروز هذا الاتجاه مع تفاقم الأزمة الاقتصادية التي عرفتها البلدان الغربية، وما نجم عنها من اضطرابات اجتماعية وسياسية آلت إلى تسلّم النازية بعقيدتها العرقية مقاليد الحكم في ألمانيا.

وفي ظل هذه التحولات السريعة انتشرت في الحياة الثقافية الأوربية على وجه الخصوص أشكال جديدة من النزعة الفلسفية التشاؤمية حيال الوجود الإنساني. وكان من الطبيعي أن تلقى الأحداث والوقائع البارزة أصداءها في أفكار المشتغلين في العلوم الإنسانية والاجتماعية. ولعلنا ندرك هذه الأصداء بوضوح أكثر في نظريات هورني وفروم وسوليفان.

عملت كارن هورني K. HORNEY(١٨٨٥-١٩٥٣م) وإريك فروم E.FROMM(١٩٠٠-١٩٨٠م) خلال عشرينيات القرن العشرين محللين نفسيين متدربين في مستشفيات برلين. وقد عرفا آنذاك بانتمائهما إلى الفكر الفلسفي الماركسي. وعقب وصول النازية إلى الحكم هاجرا إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وهناك أعلنا عن تخليهما عن الماركسية.

أولت هورني الجوانب الثقافية والعلاقات الاجتماعية اهتماماً خاصاً. ولقد زادتها ملاحظاتها الميدانية اقتناعاً بأهمية الشروط الثقافية في تكوين الشخصية. حيث وقفت خلال ممارستها العيادية على أنواع جديدة من الاضطرابات والأمراض النفسية عند مرضاها الأمريكيين تختلف عما كانت تلاحظه لدى المرضى الأوربيين. وتعززت قناعتها هذه بنتائج الدراسات الأنتروبولوجية الثقافية التي نشرتها مارغريت ميد M. MID وروث بنيديكت R. BENEDICT وب. مالينوفسكي B. MALINOFCKY ور. لينتون R. LINTON في أواسط الثلاثينيات. فقد جاءت هذه النتائج لتدحض مزاعم فرويد حول الحتمية البيولوجية ودور الغريزة الجنسية في تكون الشخصية ومظاهرها الفمية والشرجية والقضيبية وعقدة أوديب وعقدة إلكترا. وبينت في الوقت ذاته أن الثقافة

والتنشئة الاجتماعيتين هما العامل المحدد للشخصية. فالمراهقون في جزر الساموا وغينيا الجديدة لا يتعرضون لأزمة المراهقة التي أكد فرويد على حتميتها، ولا يعانون من أية صراعات كتلك التي يعاني منها المراهق في المجتمعات المتمدنة. ولاحظت ميد، صاحبة الدراسة، أن دخول طفل تلك القبائل إلى مرحلة المراهقة يتم دون اضطرابات أو مشكلات. وترجع الباحثة السبب في ذلك إلى التنشئة الاجتماعية والمعتقدات التي تؤمن بها القبيلة التي ينتمي إليها الطفل.

كما كشفت دراسة بنيديكت عن وجود اختلاف في فترة المراهقة من مجتمع إلى آخر. ففي الوقت الذي تستمر فيه هذه المرحلة سنوات عديدة في المجتمعات الحديثة، نرى أنها لا تستغرق إلا شهوراً قليلة في المجتمعات البدائية. وتمكنت الباحثة من أن تقف على نمطين للانتقال من الطفولة إلى المراهقة: النمط المتصل، والنمط المنفصل الذي يتميز بالفصل بين ما يتلقاه الطفل في مرحلة الطفولة وما ينبغي عليه استيعابه والقيام به لكي يصبح راشداً.

لقد أجزنا لأنفسنا الوقوف قليلاً عند أهم النتائج التي انتهى إليها الأنتروبولوجيون الأمريكيون لإبراز أهمية الظروف الاجتماعية والثقافية التي يترعرع الطفل في ظلها على صعيد استمرارية مرحلة المراهقة من جهة، ووجود(أو غياب) ما دعاه فرويد بأزمة هذه المرحلة وصراعاتها من جهة ثانية، وطبيعة الانتقال من الطفولة إلى المراهقة من جهة ثالثة.

إن نظرة هورني إلى الشخصية عبر أهمية المحدد الثقافي في تكونها جعلتها تقف موقفاً نقدياً من نظرية فرويد، وقادتها، وبالتالي، إلى معارضة نزعته البيولوجية واعتقاده بأن السلوك الإنساني، السوي منه والشاذ، إنما تقرره الطاقة الجنسية، وأن الدوافع التي تشكل المستويات المختلفة لنشاط الفرد تتوقف عن النمو بعد السنة الخامسة أو السادسة من العمر. وقد بسطت موقفها بصراحة في مؤلفها «طرائق جديدة في التحليل النفسي» وفيه تقول: «إن نظرية الليبيدو وجميع إثباتاتها لا تقوم على أساس علمي»(HORNEY, 1939. 68). وبعد أن تنفي الوراثة العضوية لعقدة أوديب: «لا تعتبر

عقدة أوديب موروثاً بيولوجياً» تعلن رفضها لـ«كل الإنشاءات التي بنيت على هذه النظرية» (HORNEY, 1939. 84).

وبدلاً من التفسير الجنسي لـ«عقدة أوديب» تقترح هورني تناولها في إطار العلاقات الاجتماعية داخل الأسرة. فالمخاوف التي يبديها الطفل تجاه والده لا ترجع إلى توقع الخصاء بسبب ميله الجنسي نحو أمه، وإنما إلى الدور الذي يمثله الأب في نظر الطفل كمسؤول مهيمن في الأسرة. كما أن البنت لا تحسد الولد لأنه يملك قضيباً، بل لشعورها بالمكانة المتميزة التي يخصّه بها الوالدان تحت تأثير الموقف الاجتماعي الذي يفضل الذكر على الأنثى. إن ثقافة المحيط الاجتماعي هي التي تحدد السلوك، وهي المسؤولة بصورة مباشرة عن الأمراض العصابية. تقول هورني: «إن العصابات هي في المحصلة تعبير عن الخلل في الوشائج المتبادلة بين الناس»(فورست، ١٩٥٧، ٣٣٢).

ومما يلفت الانتباه في أعمال هورني تلك الصيغة الفلسفية التي تكتسيها معالجتها لقضايا علم النفس المرضي. فقد وجدت في كتابيها «صراعاتنا الداخلية OUR INTER CONFLICTS»(١٩٤٥) و«العصاب وتطور الإنسان NEUROSIS AND HUMAN GROWTH»(١٩٥٠) أن الصراع الداخلي هو ظاهرة ملازمة للإنسان، وأن وجوده لا يعد وحده دليلاً كافياً للحكم على الشخصية بالمرض. وهي ترى أن هذا الصراع يرجع إلى «القلق الأساسي» الذي يعاني منه الإنسان بصورة دائمة ومستمرة، نتيجة إحساسه بضعفه وعجزه عن مواجهة القوى الطبيعية والاجتماعية. ويقارن الباحثون مفهوم «القلق الأساسي» بمفهوم «عقدة النقص» عند آدلر. ويجدون أنهما يتشابهان في الكثير من الجوانب. فكلاهما يعبر عن شعور ينتاب الإنسان، كل إنسان، لدى مواجهته للعالم الخارجي. بيد أن هورني لم تعتمد على آدلر اعتمادها على برغسون وكيركيجارد اللذين كثيراً ما تعود إلى كتاباتهما وتستشهد بأقوالهما وتردد المفاهيم التي اصطبغت فلسفتهما بها كـ«الخوف» و«اليأس».

وانطلاقاً من مفهوم «القلق الأساسي» طرحت هورني مسلمتها حول «الصراع الأساسي» داخل الشخصية. ويتجلى هذا الصراع في انعدام قدرة الإنسان على تلمس

سبيله نحو معرفة حقة للمستجدات والتغيرات التي تفرزها الحضارة. وفي سياق تحليلها لبنية الدافعية في علاقاتها مع المحيط الاجتماعي تميز ثلاثة أنواع من الحاجات: الحاجة إلى الآخرين، والحاجة إلى معاداة الآخرين، والحاجة إلى الابتعاد عن الآخرين. وترى أن في كل نوع من هذه الأنواع عنصراً من العناصر الرئيسية للقلق الأساسي يسيطر على تركيبه ويتغلب على العناصر الأخرى. ففي النوع الأول يتغلب الضعف الإنساني على بقية العناصر. وفي النوع الثاني تكون العدوانية هي الأقوى. بينما يتفوق الانسحاب والعزلة على غيرهما من العناصر في النوع الثالث. ويعني اختلال التوازن بين هذه الحاجات، بالنسبة لهورني، عصابية الشخصية.

لقد اتخذت هورني من هذا التحليل قاعدة لتصنيف الشخصية العصابية، فوجدت أن العصابيين يتوزعون على ثلاث فئات: التنازليين والعدوانيين والانسحابيين. ويتسم «النمط التنازلي» بالاتكالية والاعتماد على الآخرين في شؤون الحياة كافة. ويغلب عليه الغيرية والتعاطف مع الناس والاندفاع نحو تقديم الخدمات لهم. ويتميز «النمط العدواني» بالحقد على الآخرين ومعاداتهم والسعي إلى السيطرة عليهم بكل الوسائل المتاحة. تقول هورني: «...إن أحدهما(أي النمطين- ب- ع.) يطمح، وإن كان بصورة عصابية إلى المثل الإنسانية العليا، في حين يسعى الآخر إلى فلسفة الغاب»(ليبين، ١٩٨١، ١٦٠). أما «النمط الانسحابي» فيتميز بالعزوف عن الآخرين والاستخفاف بالقيم والمعايير الاجتماعية.

وخلافاً لفرويد الذي تتوقف عمليات البناء النفسي عنده على النزعة العدوانية الفطرية، تعتقد هورني أن الإنسان يحمل في داخله من القوى المبدعة ما يعينه على شحذ مواهبه وتحقيق ذاته. وتقيم اعتقادها هذا على أساس الإيمان بوجود «نزعة إلى تحقيق الذات» لدى الإنسان. وتجد أن هذه النزعة الفطرية تجسد «الحاجة المتأصلة في الإنسان إلى التطوير الذاتي لإمكاناته الداخلية. كما يشكل هذا النزوع أيضاً هدفاً للتطور البشري يحدد اتجاهات قيم الشخصية، وسبل عملها وأشكال سلوكها»(ليبين، ١٩٨١، ١٦٤).

ويحتل البحث في تطور الشخصية ومكوناتها المختلفة وارتباطه بـ«النزعة إلى تحقيق الذات» جزءاً هاماً من نظرية هورني. وفي هذا الصدد توصلت إلى القول بتشكيلات نفسية داخلية، مثل «الأنا الواقعية» و«الأنا المثالية» و«الأنا الحاضرة» و«الأنا التجريبية». فـ«الأنا الواقعية» تملك قوة حيوية، وتعرفها هورني بأنّها القوة المركزية الداخلية المشتركة بين جميع الناس، ولكنها الوحيدة في نوعها لدى كل إنسان بمفرده التي تؤلف المصدر العميق للنماء»(HORNEY, 1950, 23,24). وتنظر هورني إلى هذه القوى الحيوية على أنها اندفاعات لا واعية، ذات طبيعة مزدوجة: بيولوجية واجتماعية. وقد أطلقت عليها «النزعة إلى الأمن والرضا».

أما «الأنا المثالية» فهي الصورة التي ترسمها الشخصية العصابية لذاتها. وترغب في امتلاكها. و«الأنا الحاضرة» هي الشخصية بخصائصها الجسمية والنفسية كما تبدو في اللحظة الراهنة.

ومن خلال ذلك تتجلى بوضوح عودة هورني إلى التحليل النفسي الفرويدي. وهذه العودة لم تتوقف عند حدود استعانة هورني بمفهوم الاندفاعات اللاواعية لوصف الشخصية، بل تجاوزتها إلى مفاهيم أخرى، كالإزاحة والمقاومة، واستعمال تقنيات تفسير الأحلام وطريقة التداعي الحر. فقد اتفقت في هذه المرحلة من عملها مع فرويد حول الأهمية القصوى التي يحتلها الكشف عن دينامية الرغبات أو الاندفاعات اللاواعية، باعتباره المهمة المركزية التي يتوجب على التحليل النفسي أن يتصدى لها. وبذا تكون قد تخلت عن أهم منطلقاتها حينما لم تتطرق ولو تلميحاً إلى دور الثقافة أثناء حديثها عن «النزعات الانفعالية». واكتفت بالتأكيد على استحالة تواجدها معاً في وقت واحد، وأن بعضها يزيح البعض الآخر ويحل مكانه، مما يعني غياب الارتباط بين دينامية القوى اللاواعية ووقائع الحياة الخارجية التي طالما تمسكت بها.

إننا لا نجانب الحقيقة عندما نقول إن الثقافة الاجتماعية التي تحدثت هورني عن دورها الفعال في تحديد الشخصية وما يستتبع ذلك من إنشاءات لم تكن سوى عملية تعويض مفاهيم ومسلمات تفتقر إلى السند القوي والحجة المقنعة بأخرى أقل

إثارة للشكوك والاحتجاج بغية إكساب التحليل النفسي حلة جديدة مقبولة، وتزويده بأسباب البقاء والاستمرار. وهو ما أفصحت عنه هورني منذ البداية حينما وجدت أن مهمتها تكمن في تنقية «النظرية التقليدية» في التحليل النفسي، واستبعاد كل ما من شأنه أن يثير التحفظ أو الاعتراض والاحتفاظ بما هو إيجابي ومفيد منها. وعبرت عنه فيما بعد بدرجة أوضح حين حددت موقع نظريتها بالنسبة لـ«النظرية التقليدية» عبر إجابتها على سؤال حول مدى اعتمادها على التعاليم الفرويدية وأوجه خلافها معه. وقد تولت صياغة هذا السؤال على النحو التالي: «بما أن الكثير من تفسيراتي تختلف عن التفسيرات الفرويدية، فإن بوسع بعض القراء أن يسأل عما إذا كان يتعين أن تعد نظرياتي تحليلاً نفسياً». حيث أجابت بقولها: «إذا كان فهم التحليل النفسي على أنه جميع النظريات التي طرحها فرويد، فعندئذ لا تكون النظرية التي أنشأتها تحليلاً نفسياً»(HORNEY, 1937, IX). وبعد أن تشير إلى أن المقصود بالتحليل النفسي ليس كل ما جاء به فرويد من الألف إلى الياء. وإنما المقصود هو اللاوعي وتقنيات معالجة الأمراض العصابية التي تعتمد في جوهرها على إخراج ما هو موجود في اللاوعي إلى حيز الوعي، تعلن أنه: «في ضوء هذا الفهم تعتبر منظومتها تحليلاً نفسياً»(HORNEY, 1937, IX).

ومن تلك الوقائع الميدانية والموقع الفلسفي التي بنت عليها هورني تصوراتها حول بنية الشخصية والعوامل التي تؤدي إلى نشوء اضطراباتها وأمراضها، ينطلق فروم ليصوغ أفكاره وآراءه حول انعكاسات حضارة القرن العشرين على البنية النفسية للإنسان. فقد عارض هذا العالم تأكيدات فرويد على أهمية القوى البيولوجية البدائية(الغريزة الجنسية) واعتباره إياها المحرك الوحيد للسلوك البشري. ودلل على خطأ هذا الاعتقاد بملاحظاته حول سلوك مرضاه. حيث وقف خلال ممارسته العيادية على أعراض مرضية لم تكن موجودة في زمن بروير وفرويد. ونفى أن تكون هذه الأعراض نتيجة لنشاط الغريزة الجنسية في أطوار الطفولة الأولى، كما رفض تفسير فرويد للعقد النفسية. ورأى أن ظهورها مرتبط بمعاناة الفرد من الأعباء الثقيلة التي تفرضها عليه الحياة المادية والاجتماعية. وتتمثل هذه الأعباء، حسب

اعتقاده، في تزايد حجم الحاجات التي يحس الإنسان بعجزه عن تلبيتها. وكلما ازداد هذا الإحساس حدة تضاعفت المعاناة وتفاقمت الأزمة النفسية لديه.

وعندما يتحدث فروم عن الحاجات فإنه يتجاوز الحاجات البيولوجية. فالجوع والعطش والجنس، عنده، هي من الأمور التي يشترك فيها الناس جميعاً، وبالتالي فهي ليست مصدر الاختلاف والتباين بينهم. إن ما يعنيه بالحاجات، إذن، هو شيء مختلف، ووثيق الصلة بالثقافة الاجتماعية من مثل الحب والكراهية، الرغبة في التسلط والسيطرة والاستعداد للانصياع والخضوع. فمن هذه الحاجات تولد الفروق في الميول والاتجاهات بين البشر. ويرى فروم أن تفاوت الناس في دوافعهم إنما يعكس ثقافة المجتمع والعلاقات السائدة فيه وإن من الخطأ أن ننظر إليه كنتاج للبناء العضوي للفرد.

لقد انصب اهتمام فروم منذ البداية نحو البحث في معضلة الوجود الإنساني وغاية الإنسان والأساليب والوسائل التي ينبغي أن يستخدمها من أجل الخلاص من حالته المرضية التي يعيشها في ظل التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي حملتها المدنية البورجوازية. ويلاحظ في هذا الباب أن الإنسان المعاصر يحيا تناقضات وصراعات داخلية لم تعرف طريقها إلى إنسان الأزمنة السابقة.

فالحضارة الحديثة منحت له حرية أوسع، ولكنها، في الوقت نفسه، سلبته القيم الأخلاقية التي كان يحملها من قبل. وهذا ما خلق لديه الشعور بالقلق والخوف والاغتراب. وجعله فريسة اللامبالاة بمسائل الحياة. كتب يقول: «أصبحت تتهدده(أي الإنسان- ب. ع-) قوتان جبارتان وعملاقتان، وهما رأس المال والسوق. وغدت علاقته بغيره من الناس الذين تحول كل منهم، بالنسبة له، إلى منافس محتمل، علاقة باردة وعدائية. فأن يكون الإنسان قد وجد نفسه حراً إنما يعني أنه أصبح وحيداً منعزلاً لا يحس سوى بالأخطار من حوله «(FROMM, 1941, 62, 63).

ويلح فروم في مؤلفاته: «الهروب من الحرية» و«الإنسان في تصوره الذاتي» و«المجتمع السليم نفسياً» و«التحليل النفسي والدين» و«اللغة المنسية» على ضرورة

تناول الإنسان من حيث هو كائن طبيعي وروحي، وعدم الفصل بين ما هو طبيعي وما هو روحي فيه. وقد وجد خلال بحثه أن الإنسان يحمل مجموعة من التناقضات التي يمكن تصنيفها في مجموعتين: التناقضات الوجودية، والتناقضات التاريخية. فالإنسان، في رأيه، كائن ضعيف. وضعفه يتأتى من كونه جزءاً من الطبيعة وخاضعاً لقوانينها. وهو، في الوقت ذاته، قوي بفضل قدرته على فهم ذاته وإدراك ضعفه.

ويوضح ليبين موقف فروم من هذا التناقض بقوله: «إن الإنسان الذي ولد نتيجة تقلبات وأهواء الطبيعة، والذي لا يملك ما للحيوان من غرائز قوية، يطور القدرة على اتخاذ القرارات بصورة مستقلة. غير أنه، أثناء اصطدامه بجملة من القرارات المتناقضة لا يستطيع أحياناً اختيار الصحيح منها، مما يولد لديه عدم الثقة والخوف والقلق، مما يدل على وجود «ازدواجية» وجودية أخرى، نظراً لأن الثمن الذي يدفعه الإنسان لقاء الوعي هو عدم الثقة بالنفس» (ليبين، ١٩٨١، ١٨٩).

ومن بين الأمور الجوهرية التي يعيها الإنسان نهايته المحتومة. ويعتبر فروم حقيقة حياة الإنسان وحتمية موته «التناقض الوجودي» الرئيسي. ويتجلى التناقض الثالث في الإمكانات الكبيرة التي يتمتع بها الإنسان، وعجزه عن استغلالها وتوظيفها بسبب قصر حياته. أما التناقض الوجودي الرابع فإنه يتمثل في محاولات الإنسان الرامية إلى إعادة الانسجام مع العالم الخارجي دون أن يظهر أي استعداد للتخلي عما يميز شخصيته. فهو يبدي مرونة أثناء تفاعله مع المحيط، وفعالية في بناء علاقات طيبة مع الغير، ولكنه لا يفرط باستقلاليته عنهم. ومع أن فروم يعترف بوجود تباين في مواقف الناس تجاه هذه التناقضات تبعاً لثقافاتهم، إلا أنه لم يجد لديهم ما يخلصهم منها ويبعد تأثيراتها السلبية عنهم.

وتختلف التناقضات التاريخية عن «التناقضات الوجودية» من حيث مصدرها وطبيعتها. فبينما يمثل الوجود الإنساني ذاته مصدر «التناقضات الوجودية» التي تتصف بالديمومة، تنشأ «التناقضات التاريخية» بفعل ظروف حضارية معينة. ولذا يعتبرها فروم تناقضات مرحلية وعرضية. ويسوق عليها أمثلة مستمدة من التشكيلات

الاجتماعية المختلفة التي ظهرت عبر التاريخ البشري. ومنها التناقض الذي تعيشه الحضارة المعاصرة والمتمثل في التقدم السريع للعلم والتقنية الذي جرد الإنسان من قيمه الروحية عوض أن يسخر لرفاهه وسعادته. ولقد بدا فروم متفائلاً في نظرته إلى هذا التناقض. حيث يرى أن هناك إمكانية لحله. بيد أنه بدلاً من أن يبحث عن حل جماعي وشامل، راح يستنهض الفرد ويستحث وعيه وطاقاته الكامنة للاضطلاع بهذه المهمة الصعبة والمعقدة.

إن الحالة الاجتماعية والأحداث التي عاشتها أوربا في فترة ما بين الحربين العالميتين وما خلفته من آثار على الفرد والجماعة تركت بصماتها، ولا شك، على آراء فروم وصبغت نظرته في حضارة هذا القرن بالسوداوية والتشاؤم. فقد رأى أن الحرية التي منحتها هذه الحضارة للإنسان قد تحولت إلى عبء ثقيل لا يحتمل. وقضت على الدعة والهدوء والطمأنينة التي كان يعيشها إنسان القرون الوسطى. واستبدلت التضامن والتعاون بين الأفراد والأمن الاجتماعي الذي كان سائداً آنذاك بالعداء والتنافر وشعور الإنسان بعزلته. وللخروج من هذا الوضع البائس يقترح فروم حلين لا ثالث لهما. فإما أن يهرب الإنسان من الحرية مهما كانت هذه الحرية، وإما أن يصعد من «الحرية السلبية» إلى «الحرية الإيجابية». وحسب تقديره فإن معظم البشر يتبعون الحل الأول. ويقيم هذا التقدير على الاعتقاد بأن الإنسان يحمل رغبة لا تقهر في هذا الشكل من التخلص من أعباء الحرية.

وعندما أراد فروم أن يتحرى آليات هذه الرغبة اللاواعية وجد أن السبيل الأنسب هو العودة إلى التراث الفرويدي والاعتماد على طريقة التداعي الحر وتفسير الأحلام وتوظيف المفاهيم التي تعبر عن تلك الآليات. وقد توصل بفضل ذلك إلى أن تجليات الهروب من الحرية تتجسد في السادية والمازوكية والتدميرية والانسجام الآلي.

فالسادية هي نزعة الإنسان للتخلص من مشاعر القلق والخوف والعزلة عن طريق إخضاع الآخرين والسيطرة عليهم. وتتخذ هذه النزعة وجهاً محرفاً يدعوه فروم بالمازوكية. والمازوكية تجسد النزعة إلى الضّعة والخضوع للآخر.

أمـا التدميريـة فتشـير إلـى رغبـة الإنسـان في تدميـر الآخـر قبـل أن يقـوم الآخـر بتدميـره. ويعنـي الانسـجام الآلـي تلـك الخاصيـة النفسـية التـي تتجلـى في تقبـل الفـرد لمطالـب المجتمـع والرضـوخ إليهـا حتـى ولـو لـم يكـن مقتنعـاً بهـا.

ووجـود هـذه الآليـات لا يقتصـر علـى فئـة مـن المجتمـع فقـط، وإنمـا يقدمهـا فـروم- كمـا فعلـت هورنـي- علـى أنهـا خاصيـة كل إنسـان. وهـذا مـا دفعـه إلـى الحكـم علـى جميـع النـاس الذيـن يعيشـون في المجتمـع الرأسـمالي بأنهـم مرضـى عصابيـون. يقـول: «إن المجتمـع الغربـي هـو مجتمـع مريـض. والأغلبيـة السـاحقة مـن النـاس الذيـن يعيشـون فيـه، إن لـم يكـن جميعهـم، هـي، إلـى هـذا القـدر أو ذاك مريضـة نفسـياً. لقـد حـدث هـذا لأن العقـل والمعـارف والحقيقـة، أو، بكلمـات أخـرى، لأن النشـاط العقلـي حلـت محلـه الدافعيـة العميـاء. كل ذلـك إنمـا صنعتـه الحريـة السـلبية المضنيـة التـي جـاءت بهـا الرأسـمالية»(منصورف، ١٩٦٢، ١٠٨).

ولعلـه مـن الواضـح في ضـوء مـا تقـدم أن فـروم حـاول أن يطبـع نظريتـه بالطابـع الثقـافي والاجتماعـي. وقـد تصـدى في مؤلفاتـه وخاصـة كتابـه «الهـروب مـن الحريـة» لتفسـير المشـكلات الاجتماعيـة والسياسـية. ولكـن السـؤال الـذي يطـرح نفسـه هنـا هـو: إلـى أي حـد وفـق فـروم في مسـعاه؟.

إن الإجابـة علـى هـذا السـؤال تتطلـب العـودة إلـى أعمـال الرجـل وقراءتهـا بإمعـان. ففـي مؤلفـه المذكـور «الهـروب...» يسـتوقفنا تأكيـده علـى أن أي نظـام اجتماعـي- سياسـي يقـوم نتيجـة العوامـل النفسـية. وهـو يضـرب النازيـة كمثـال علـى ذلـك، ويـرى أن ظهورهـا كان بسـبب أعبـاء الحريـة التـي أثقلـت كاهـل الألمـان وأفقدتهـم صبرهـم. فوجـدوا في الحكـم الفاشـي أفضـل مخـرج للنجـاة مـن حالـة الاغتـراب والقلـق والخـوف. لقـد أراد فـروم أن يقـول أن الانسـجام الآلـي كآليـة للهـروب مـن الحريـة التـي ميـزت الشـعب الألمانـي هـي السـبب المباشـر لوصـول هتلـر إلـى الحكـم. ومما عـزز هـذه النزعـة قيـام البورجوازيـة الصناعيـة والماليـة الألمانيـة بتصفيـة «اللامنسـجمين» والتنكيـل بهـم. الأمـر الـذي ضمـن حيـاد الطبقـات الفقيـرة في المجتمـع الألمانـي. كمـا يرجـع فـروم صعـود النازيـة إلـى الحكـم

ومساندة الطبقات الوسطى لها إلى تفشي النزعة السادية والمازوكية التي أطلقت الدوائر الإمبريالية لها العنان.

وهكذا فإن تشديد فروم على الدور الحاسم الذي تلعبه الخصائص النفسية في الأحداث الاجتماعية والسياسية والاقتصادية يبعده تماماً عن هدفه في صياغة نظرية تكون الكلمة الفصل فيها للعامل الثقافي والاجتماعي.

وعلى خلفية معارضة المسلمات الفرويدية الأساسية صاغ الطبيب النفسي الأمريكي هاري ستاك سوليفان H. S. SULLIVAN(١٨٩٢-١٩٤٩م) نظريته في التحليل النفسي.

وقد استمد أفكاره وتصوراته من ملاحظاته اليومية لسلوك مرضاه من جهة، والاستنتاجات التي خلص إليها الباحثون الذين تناولوا الجانب الاجتماعي في الشخصية وأثر التفاعل الاجتماعي فيها، أمثال عالم الاجتماع ش. كولي وعالم النفس ليفين وعلماء الأنتروبولوجيا ر. بنيديكت وم. ميد وب. مالينوفسكي من جهة ثانية. وتقترب نظرية سوليفان من نظريتي هورني وفروم ليس في رفضه للمحددات البيولوجية وحسب، بل وفي طرحه البديل الثقافي والاجتماعي. وتعرف هذه النظرية باسم «نظرية العلاقات الشخصية المتبادلة».

بسط سوليفان آراءه في كتاب «نظريات في الطب النفسي المعاصر» الذي نشر عام ١٩٤٧، وفي محاضراته ومقالاته التي جمعت بعد وفاته في كتابين: «نظريات العلاقات الشخصية المتبادلة في الطب النفسي» و«المقابلة الطبية النفسية». ولعل بوسعنا إدراج أعماله ضمن المباحث التي تناولت نشوء الشخصية وتطور سماتها ومحدداتها، وظهور الاضطرابات فيها والأسباب المؤدية لها. فقد كان الفرد في الجماعة مدخله العام في دراسة السلوك السوي والسلوك المرضي. وهذا ما جعله ينظر إلى الشخصية في نموها وتبلورها عبر شبكة العلاقات الجماعية القائمة بين الأفراد. وقد عبر عن هذه الفكرة بقوله: «ولا يمكن أن تكون(الشخصية-ب. ع-) منعزلة عن جملة العلاقات الشخصية المتبادلة التي تعيش ضمنها»(ليبين، ١٩٨١، ١٧٣).

ولقد كان لطبيعة عمل سوليفان أثر واضح في توجيه اهتمامه نحو الظواهر النفسية المرضية، والفصام (الشيزوفرينيا SCHIZOPHRENIE) منها على وجه الخصوص. وخلافاً لهورني وفروم فإن سوليفان يرفض طريقة «التداعي الحر» معللاً ذلك باختلاف مرض الفصام عن الأمراض العصابية التي تولى فرويد ومن بعده هورني وفروم علاجها. ويقترح بدلاً منها المقابلة العيادية التي يجد أنها تمده بإمكانية تحري نشأة الحالة المرضية وأسبابها وأعراضها المختلفة.

وربما يتبادر للذهن أن سوليفان بإعلانه عن «العلاقات الشخصية المتبادلة بين الناس» كموضوع للبحث والمقابلة العيادية كطريقة للتشخيص والعلاج النفسيين قد قطع كل صلة بالتعاليم الفرويدية وصبغتها البيولوجية. ولكن الحقيقة هي غير ما يتراءى لنا من خلال بعض الآراء المطروحة والأدوات المقترحة. فإذا ما مضينا قدماً في قراءتنا لأعمال سوليفان وجدناه يتحدث عن ثلاثة مبادئ، هي: مبدأ الوجود الاجتماعي، ومبدأ النشاط الوظيفي، ومبدأ التنظيم، معتبراً نقل هذه المبادئ من «البيئة البيولوجية» إلى «البيئة النفسية عملاً مشروعاً، لأنها، حسب اعتقاده، قوانين نهائية لا تحتاج صلاحيتها والاعتماد عليها في دراسة الشخصية إلى برهان. ولدى تحليله لبنية الشخصية يرى أنها تشتمل على «القلق» و«الانفصال» و«التصعيد» و«الفكرة المسيطرة» و «الحسد». وقد أطلق على هذه المركبات اسم ديناميات السلوك الإنساني، مستخدماً إياها في وصف علاقة الفرد بالآخرين في شتى المواقف الاجتماعية.

ويتناول سوليفان ديناميات السلوك كطاقة يزود بها الكيان الإنساني منذ الولادة. وبذا فإنه ينسبها إلى مكونات اللاوعي من الجهاز النفسي. فالقلق، مثلاً، هو سمة من بين السمات التي تلازم الإنسان طوال حياته. ويتجلى وجودها في إحساس الطفل بالحاجة الدائمة إلى عطف أمه ومساندتها، واقتران ذلك بخوفه المستمر من الانفصال عنها.

وليس من العسير أن نلاحظ الشرط الاجتماعي الذي وضعه سوليفان لظهور الديناميات. فهو-كما يقول- يبرز من خلال تفاعل الفرد مع الآخرين وبحثه عن تلبية

حاجاته المتنامية أثناء ذلك. ويرى سوليفان أن عدم وصول الفرد إلى تلبية حقيقية لحاجاته يقود إلى نشوب صراع داخلي لديه، وبالتالي نشوء الأعراض المرضية التي تحدد مستوى علاقته بالعالم الخارجي. ويعزو السبب في ذلك إلى تعارض حاجات الفرد مع الأساليب الاجتماعية التامة، أو إلى ما يعانيه الفرد من «قلق» إزاء وضعه في المجتمع.

إن التأكيد على دور المجتمع في نشأة الحاجات وتوجيه مسار ديناميات السلوك يفقد قدراً كبيراً من مصداقيته حينما ينظر إليه من خلال موقعه الحقيقي ضمن الإطار العام لتصورات سوليفان حول آليات النشاط النفسي. ذلك لأن دينامية هذا النشاط تقررها طاقة محددة سلفاً وثابتة نسبياً. ولأن دور الظروف الاجتماعية يقتصر على توفير موضوعات هذا النشاط وتحديد وجهته. ويتبين هذا من خلال بحث سوليفان عن أسباب انفصام الشخصية والاكتئاب وجنون العظمة في المعطى القبلي المتمثل في النقص الطبيعي الذي يدركه الإنسان في ذاته، بدلاً من البحث عنه في الخبرة والتاريخ الاجتماعيين للفرد. وعليه فإن السبيل إلى معالجة هذه الأمراض النفسية يمر، في اعتقاده، عبر «استئصال» أجزاء الدافعية اللاواعية التي تقف عقبة كأداة في وجه الفرد، وتحول بينه وبين إقامة صلات اجتماعية حسنة.

وهكذا تكون إرادة سوليفان في تقديم فكر جديد ومتميز في الطب النفسي قد بقيت حبيسة النزعة الانتقائية والتوفيقية التي اتسمت بها الاتجاهات الجديدة في التحليل النفسي. ولم تقدم نظريته شيئاً كثيراً على صعيد العلاقة بين الشخص والمجتمع، ما عدا بعض الإشارات والإيماءات إلى أثر اختلاف العلاقات الاجتماعية والانحلال الأخلاقي في المجتمعات الغربية (والمجتمع الأمريكي بصورة خاصة) في التصدع النفسي وزيادة الحالات المرضية. وبدلاً من أن يتوجه إلى معالجة الظواهر الاجتماعية السلبية وإصلاحها بوصفها المسؤولة عن الاضطرابات النفسية المتفاقمة، كما يوحي بذلك اسم نظريته، انصرف للبحث عن التقنيات الكفيلة بتكوين اتجاهات إيجابية عند الفرد تجعله يتقبل مجتمعه ويتكيف مع ظروفه، وتمكنه من بناء علاقات عادية مع الآخرين.

النظرية الاقتصادية- الاجتماعية- الجنسية

مؤسس هذه النظرية هو ويلهلم رايش الذي ولد في النمسا عام ١٨٩٧، وتوفي في بنسلفانيا الأمريكية عام ١٩٥٧.

عاش رايش حياة مضطربة نتيجة الصراعات الحادة والأحداث العنيفة التي عرفتها أوربا الغربية على صعيد الاقتصاد والفكر والسياسة، وأدت إلى نشوب حربين عالميتين. وكانت ميوله موزعة بين الطب والفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس. انضم إلى الرابطة الدولية للتحليل النفسي عام ١٩٢٠. وانتسب إلى الحزب الشيوعي عام ١٩٢٧. وأسس الجمعية الاشتراكية للاستشارات والبحوث الجنسية في فيينا عام ١٩٢٨. وبعد عامين غادر العاصمة النمساوية إلى برلين. وهناك أنشأ جمعية الإصلاح التربوي والجنسي في صفوف الطبقة العاملة. وفي عام ١٩٣٣ اضطر إلى مغادرة ألمانيا والتوجه إلى الدانمارك فالنرويج ثم السويد هرباً من السلطة النازية. وفي عام ١٩٣٤ فصل من الحزب الشيوعي والرابطة الدولية للتحليل النفسي بسبب مواقفه الفكرية والسياسية المعارضة لهما. ومع زيادة حدة التوتر في العلاقات بين البلدان الأوربية هاجر عام ١٩٣٩ إلى الولايات المتحدة الأمريكية وبقي فيها حتى وفاته.

كتب رايش مجموعة من الكتب والمقالات، أهمها «النزعة الجنسية في الصراع الحضاري»(١٩٣٥) و«المادية الجدلية والتحليل النفسي»(١٩٢٩، ١٩٣٤) و«سيكولوجية الجماهير في الفاشية»(١٩٣٢) و«وظيفة الأورغون»(١٩٥٢).

وتعتبر نظرية رايش محاولة للتوفيق بين إيجابيات التحليل النفسي الفرويدي والنظرية الاقتصادية الماركسية. وربما تكون، بالنسبة له، بديلاً عن النظريتين. وحينما نخص الجوانب الإيجابية من النظرية الفرويدية بالتحديد، فإننا نقصد من وراء ذلك أن نشير إلى أن رايش لم يسلم بكل ما جاء به فرويد، بل إنه عارض بعض مقولات ومفاهيم التحليل النفسي الكلاسيكي بعد أن أخضعها لتقييم تجريبي.

لقد كرس رايش جزءاً هاماً من أعماله ونشاطه للتدليل على مادية وجدلية التحليل النفسي، ومثالية وشكلية كل ما ظهر قبله على ساحة علم النفس. وكان يسعى من خلال

ذلك إلى تقديم التحليل النفسي على أنه علم كسائر العلوم التي تطبق الجدل المادي وتبني عليه نظرياتها. وفي هذه الحالة «يكون الماركسي قد علم أنه أمام علم لا يناقض الاشتراكية، وعندئذ ليس من الواجب الاعتراف به فحسب، بل إدراجه في بناء النظرة المادية الجدلية إلى العالم»(رايش، المادية الجدلية والتحليل النفسي، بلا تاريخ، ١١).

ولما كانت الدافعية تشكل حجر الزاوية في البناء النظري الفرويدي، فإن رايش يقترح أن تكون نقطة التقاء الجانب المادي(الجسد) بالجانب النفسي(الوعي) عند الإنسان. وقد دلل على ذلك بما قاله فرويد حول الطاقة الجنسية(الليبيدو) بأنها عملية كيميائية تتم في الجهاز الجنسي والمناطق الشبقية من العضوية، وتتخذ منذ الولادة حتى المراهقة أشكالاً متعددة تبعاً للمنطقة التي تتركز فيها وصولاً إلى المرحلة التناسلية.

وبتأكيده هذا يكون رايش قد جعل من المسألة الجنسية قاعدة لإنشاءاته النظرية وعمله الميداني بعد تزويدها بالبعد الاقتصادي. فعلى هذه القاعدة ربط بين تجليات غريزة الموت التي تحدث عنها فرويد، كالشعور بالذنب والعدوانية، بالطاقة الجنسية. ووجد أن العلاقة بينهما هي علاقة طردية. فغياب إمكانية تفريغ الطاقة الجنسية أو ضعفها يفسح المجال أمام ظهور النزعة العدوانية والتدميرية. بينما يساعد خفض التوتر على إضعاف تلك النزعة ويحول دون بروزها. كما لم يفته أن يفسر ظهورها بانعدام تلبية الحاجة إلى الغذاء. ومن هذه الزاوية نظر إلى الدافع إلى التدمير «كتكوين ثانوي متأخر للعضوية، يتحدد من خلال الظروف التي يتم فيها إرضاء الدافع الغذائي والحاجة الجنسية»(رايش، المادية الجدلية والتحليل النفسي، بلا تاريخ، ٢٤). ولكن ذلك لا يعني أن رايش يساوي بين الدافع الجنسي والدافع الغذائي من حيث الدور الذي يضطلع به كل منهما في الحياة النفسية للفرد. فقد تحدث عن دورين مختلفين تماماً يقوم بهما الدافعان: دور أساسي وفعال يقوم به الدافع الجنسي مقابل دور ثانوي يلعبه الدافع الغذائي. كتب يقول: «لقد تمكن الفكر الاقتصادي الجنسي أن يتابع سيره بضع خطوات في مسألة علاقة الحاجة الغذائية بالحاجة الجنسية. فالحاجة الغذائية توافق هبوطاً في التوتر أو في الطاقة، لذلك لا يجري إرضاؤها إلا بإدخال الطاقة. بينما الحاجة الجنسية يجري إرضاؤها بإخراج الطاقة

أو تصريفها. هذا ما يفسر أن الجوع قد يشارك أو يشارك فقط بصورة غير مباشرة في بناء الجهاز النفسي، بينما الطاقة الجنسية هي القوة البناءة أصلاً، الإيجابية، الإنتاجية لما هو نفسي» (رايش، المادية الجدلية والتحليل النفسي بلا تاريخ، ٢٢).

ومع أن رايش يتفق مع فرويد حول كون الواقع الخارجي مصدر القيود والضغوط التي يواجهها النشاط الجنسي، إلا أن هذا الواقع لم يكن بالنسبة له شيئاً ساكناً لا يتحول ولا يتغير، مثلما تصوره مؤسس التحليل النفسي مثالياً ومحافظاً ومنافياً لطبيعتها الثورية. ولا شك أن رايش كان محقاً في موقفه الانتقادي هذا. حيث أن فرويد لم يدرس هذا الواقع في حركته وسيرورته الدائمتين، وقدمه كمعطى ثابت ثباتاً مطلقاً.

إن توسيع دائرة الممارسة العيادية لتشمل أبناء الطبقة العاملة هو الذي مكن رايش من ملاحظة أثر ظروف التنشئة الاجتماعية داخل الأسرة وفي الأحياء الفقيرة على سلوك الفرد، ودفعه، من ثم، إلى إعطاء مضمون اجتماعي واقتصادي لآليات النشاط الجنسي والنظر إلى هذا المضمون ضمن أطره الزمانية والمكانية وسياقه التاريخي. وعلى أساس ذلك رأى أن التناقض بين مبدأ اللذة الذي يخضع له النشاط الجنسي ومبدأ الواقع ليس تناقضاً كلياً، وإنما هو تناقض جزئي. فالقيم التي يراعيها المجتمع في تنشئة أبنائه وتلبية حاجاتهم تتغير وتتطور بتغير المجتمعات وتطورها. ويسوق رايش في مؤلفاته العديد من الأمثلة التي تبين تبدل مضمون اللذة من تشكيلة اجتماعية(عبودية، بورجوازية) إلى تشكيلة أخرى، ومن طبقة إلى طبقة أخرى.

لقد تصدى رايش بحماس شديد للانتقادات التي وجهت إلى التحليل النفسي، مبرزاً الطبيعة المادية لأنظمة النفس الثلاثة والعلاقة الجدلية القائمة بينها. فاللاوعي الذي هو جزء من الهو يختزن-إضافة إلى خبرات الفرد المؤلمة- خبرات نوعية موروثة على صورة رموز. ولهذا يعتبره رايش كياناً قابلاً للتطور في الزمان. ويرجع ذلك إلى التناقض القائم بين ما هو بيولوجي وما هو اجتماعي في الشخصية، أي بين الهو والأنا الأعلى. ويبرز هذا التناقض بأشد ما يكون الوضوح في ساحة الأنا التي تتوسع تدريجياً نتيجة تفاعل العضوية

المشحونة بالليبيدو من جهة، والمحيط الخارجي وتأثيراته المادية على تلك العضوية عبر الجهاز الحسي من جهة أخرى. وبما أن المحيط الاجتماعي يتغير، فإن مضامين الأنا الأعلى والأنا واللاوعي تتغير تبعاً لذلك. كما تتغير آليات الدفاع، كالكبت والتصعيد والإسقاط وغيرها لتكتسي حلة اقتصادية وإنتاجية.

ولعل موقف رايش الانتقادي تجاه التحليل النفسي الفرويدي، وخاصة النظرية الجنسية، ومحاولته تقنينها بقوانين المادية الجدلية وإكسابها البعد الاقتصادي والاجتماعي يتضح من خلال معالجته لعقدة أوديب. فقد أخذ على فرويد نظرته الميتافيزيائية إلى هذه العقدة وتصويره لها كظاهرة مطلقة، أزلية وأبدية. وفي معرض دحضه لهذه النظرة استعان ببعض الدراسات التي تناولت المجتمعات البدائية. ومنها استمد حججه العلمية لربط عقدة أوديب بالوضع الاقتصادي للمجتمع، ولطرح تساؤل حول مصير هذه التسمية وعما إذا كانت تعبر بالفعل عن مختلف أشكال العلاقات الأسرية في المجتمعات القديمة، ومن ضمنها المجتمع الأمومي، وتنطبق على أشكال أخرى سوف تفرضها مجتمعات المستقبل. ويرد رايش على هذا التساؤل بصورة مباشرة ومقتضبة فيقول: «إن التحليل النفسي يفهم جميع العمليات النفسية فهماً جدلياً، ولو كانت لا شعورية، ما عدا عقدة أوديب التي تبدو أنها نقطة السكون في خضم الظواهر المتحركة»(رايش، المادية الجدلية والتحليل النفسي، بلا تاريخ، ٥٩).

وإذا كان رايش قد تحدث في مؤلفاته الأولى عن تصور فرويد لبنية الشخصية دون تعديلات أو تحفظات تذكر، فإنه رجع إليها فيما بعد ليسجل اعتراضه عليه ويقترح تصوره الخاص. فقد ذهب في تصوره هذا إلى القول بوجود ثلاثة أقسام أو أجهزة للشخصية، يتولى كل منها القيام بوظائف محددة. فالقسم الخارجي أو الظاهري يلعب دور القناع الذي يخفي به الإنسان جوهره الحقيقي باتباعه أساليب المداورة والتزييف والتكلف التي يفرضها المجتمع. ويعتبر القسم الداخلي أو الانتقالي، الذي يقابل اللاوعي عند فرويد، خزان الدوافع الثانوية السلبية والرغبات اللاواعية. ويتكون القسم الباطني العميق أو «النواة البيولوجية» من الدوافع الأساسية الإيجابية، الاجتماعية والطبيعية، التي تؤلف مصدر الشخصية المتوازنة وتفتح الإنسان ورقيه وسعادته.

وحينما يشخص رايش الشخصية ويصف مركباتها، فإنه يلقي تبعة الانحرافات والاضطرابات التي تحل بها على الجزء الانتقالي الذي يعتبره ساحة تتحول فيها الدوافع الاجتماعية والطبيعية عن مسارها الصحيح. حتى إذا بلغت القسم الظاهري لبست قناع التزييف الاجتماعي. ولقد وجد في الشخصية المعاصرة التي تعيش في ظل المعتقدات والقيم الأخلاقية والجمالية البورجوازية نموذجاً حياً لذلك التشوه والانحراف اللذين يفرزهما الوضع الاقتصادي والاجتماعي.

ومن هذا المنظور(الاقتصادي والاجتماعي) يتناول رايش النزعة اللاواعية(السادية، المازوكية...) وغرائز الموت والتدمير بوصفها دوافع ثانوية، سلبية، لا عقلية تسم أفراد المجتمع البورجوازي. وهذا هو بحد ذاته محاولة لتصويب الفهم الفرويدي لهذه الجوانب النفسية وإرجاعها من المطلق لوضعها في سياقها التاريخي- الاجتماعي. وعلى هذا النحو تصبح مظاهر العدوان والتدمير وعقدة أوديب، عند رايش، تكوينات نفسية مرضية تظهر لدى الفرد تحت وطأة أسلوب الإنتاج الرأسمالي والعلاقات الاجتماعية البورجوازية بعد أن كانت، عند فرويد، معطيات متأصلة في وجود الكائن الإنساني.

بيد أن المقدمات المتأصلة في الوضع الاقتصادي والاجتماعي التي تتبع رايش انعكاساتها على بنية الشخصية قصرها في مرحلة لاحقة عند دراسته لتحرير الدوافع الطبيعية والاجتماعية وتخليص الإنسان المعاصر من اغترابه على الطابع التسلطي لأيديولوجيا الأسرة البورجوازية الصغيرة. وزيادة على ذلك فإن القارئ الذي خبر مسلك رايش الفكري وأسلوبه في معالجة موضوعات بحثه باحتكامه إلى المنهج المادي الجدلي قد يفاجأ بتناقض بعض استنتاجات الرجل مع ذلك المنهج. والقضية تبدأ بحرص رايش على احترام مبدأ أولوية الواقع المادي وثانوية المظاهر النفسية. فوفقاً لهذا المبدأ وجد أن الشخصية بأجهزتها وأقسامها، باضطرابها واتزانها، هي ثمرة الواقع الاقتصادي والاجتماعي المعاش. غير أنه لم يحتكم إلى هذا المبدأ في جميع محاكماته. فقد قام في الخطوة التالية- على غرار ما يفعل المثاليون- بتعميم تصوره لبنية الشخصية على الطبقات الاجتماعية والسياسية. حيث قابل محتويات أقسام النفس وطبقاتها من جهة، والقيم والمعايير الأخلاقية والتصورات التي تميز

طبقات المجتمع من جهة ثانية. فالطبقة الأولى من النفس التي تحتوي على التزييف الاجتماعي تقابل القيم والأخلاق الليبرالية. والطبقة الوسطى التي تختزن الدوافع الثانوية، اللاواعية، المنحرفة تقابل الفاشية بنزعتها التدميرية والعدوانية. والطبقة العميقة تقابل الطبقة الثورية في المجتمع.

وبدل أن يمر طريق الخلاص من القهر والقلق والاغتراب عبر تغيير الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي يشير إليها رايش بأصابع الاتهام ويعتبرها المسؤولة عن تدهور الشخصية وما تعانيه من اضطرابات وأمراض، ينصحنا رايش نفسه بضرورة الاعتماد على البنية الذاتية للشخصية وإطلاق العنان للدوافع الاجتماعية والطبيعية الكامنة فيها. وهذا ما لا يتحقق، في اعتقاده، إلا بما أسماه «الثورة الجنسية».

لقد ألح رايش على أهمية هذه الثورة واعتبرها خطوة أساسية على طريق الثورة الإنسانية الحقيقية التي تحقق للإنسان الانعتاق الاقتصادي والطبقي والخلقي وتوفر له الأمن والانسجام النفسي، وتفسح المجال واسعاً أمام ارتقائه وازدهاره، وتجعل منه إنساناً حقيقياً، محباً ومنتجاً ومبدعاً.

ولئن كان وصف رايش لمعاناة الإنسان المعاصر وأسبابها يفتقر إلى التماسك والتسلسل المنطقيين فما ذلك إلا نتيجة تخليه المتعمد أو العفوي هنا وهناك عن المقاييس التي يقتضيها المنهج المستخدم، وتعويضها بمقاييس ذاتية. ولعل هذه الثغرات هي التي قادته إلى وضع تصوراته حول «الثورة الجنسية» وما ستقدمه للفرد والمجتمع من أسباب الرفاه والتطور. وهي تصورات لا تتجاوز حدود التمنيات الطيبة والرغبات الجميلة التي ما فتئت تراود مخيلة المفكرين المثاليين وأحلام الطوباويين.

●●●